﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءت الآية الكريمة معطوفة بالفاء على محذوف، كأنَّه قيل: فلم ينتصحوا، ولم يعلنوا الإيمان، فلما أحسَّ - أي: بعد أن قدَّم الأدلَّة والبَراهينَ في الآيات السّابقةِ على صدق رسالَتِهِ، فبيّنَ لهم المعجزات الَّتي جرت على يديه، ثمَّ أمرهم بتقوى الله وعبادته - ذَكَرَ في هذه الآية أنَّ عيسى عَلِمَ منهم الإنكارَ عليه، والكفرَ برسالته، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحَسَّ﴾: جذر الكلمة هو: (حسس)، وهو أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ، فَالْأَوَّلُ الْحَسُّ: الْقَتْلُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 152]، والثاني: العِلمُ، ومنه قَوْلُهُمْ أَحْسَسْتُ، أَيْ عَلِمْتُ بِالشَّيْءِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ [مريم: 98]، وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى قَوْلِهِمْ قَتَلْتُ الشَّيْءَ عِلْمًا؛ فَقَدْ عَادَ إِلَى الْأَصْلِ الأول وهو القَتْلُ. وَيُقَالُ لِلْمَشَاعِرِ الْخَمْسِ الْحَوَاسُّ، وَهِيَ: اللَّمْسُ، وَالذَّوْقُ، وَالشَّمُّ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ. والمصدر الْحَسُّ والحَسيس، وَقد قَالُوا: حَسِيت بالشَّيْءِ في هَذَا الْمَعْنَى، وأحسَسْتُ بِهِ، والآية من المعنى الثاني[2].

2) ﴿أَنصَارِيٓ﴾: جذر الكلمة هو: (نصر)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. وَنَصَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا. وَانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وَهُوَ مِنْهُ. وَأَمَّا الْإِتْيَانُ فَالْعَرَبُ تَقُولُ: نَصَرْتُ بَلَدَ كَذَا، إِذَا أَتَيْتَهُ، والنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، ورجل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/254.
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسس).

ناصر من قوم نصار ونصر وأنصار[1]، والأنصارُ: جماعة النَّاصِر، وأنصار النَّبيِّ ﷺ أعوانُه، والنَّصيرُ والنَّاصِرُ واحدٌ، وقال اللهُ تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال: 40]، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعُونة، وقال اللهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الحج: 15][2].

3) ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: جذر الكلمة هو: (حور)، وله ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: منها لَوْنٌ، وَالْآخَرُ الرُّجُوعُ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَالْحَوَرُ: شِدَّةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ فِي شِدَّةِ سَوَادِهَا، يُقال: حَوَّرْتُه تحويرًا، أي: بَيَّضتُه، وامرأةٌ حَوارِيَّة، أي: بيضاء حضريَّة، وتَحْوِيرُ الثِّياب تبييضها، ومنه قيل لأصحاب عيسى، عليه السلام: الحَوَارِيُّون؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحَوِّرُونَ الثِّيَابَ، أَيْ يُبَيِّضُونَهَا فكانوا قصَّارين[3]، يقال: فعل الحواريُّون كذا، ونصر الحواريُّون كذا، فلمَّا جرى على ألسنة النَّاس؛ سُمِّيَ كُلُّ ناصرٍ حواريًّا[4]. وقيل: الحَوَارِيُّ الناصر، قال النَّبيُّ، ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ حَوَارِيٌّ وحَوارِيَّ الزُّبَيْر بنُ العوَّام»[5]، وَأَمَّا الرُّجُوعُ، فَيُقَالُ حَارَ، إِذَا رَجَعَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ﴾ [الانشقاق: 14-15] وَالْعَرَبُ تَقُولُ: "الْبَاطِلُ فِي حُورٍ" أَيْ رَجْعٍ وَنَقْصٍ[6].

والحواريُّونَ: لَقَبٌ لِأَصْحابِ عِيسى عليه السلام الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ولازَمُوهُ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

انتقل اللهُ تعالى – في هذه الآية من البشارة بعيسى – إلى ذِكْر خبره مع قومِه، وطوى خبرَ ولادته ونشأتِه؛ اكتفاءً بآيات البِشارة الدّالَّة عليها، فلمَّا استشعر عيسى منهم التصميمَ على الكفر، والاستمرارَ على الضَّلال، وظهر أنَّ تلك الآياتِ العظيمةَ لم تُجْدِ معهم نَفعًا، ولم تجدْ إلى هدايتهم سبيلًا، نادَى في أصحابه الخُلَّص: مَن يكون معي في نصرة دين الله؟ في موقفٍ فاصلٍ بين الحَقِّ والباطل، والإيمانِ والكفر، فالمُخلصون أصفياءُ عيسى – المُنقادون للهِ – أعلنوا نَصْرهم لله، وأنهم أنصارُ دينِ الله والدَّاعون إليه:

(1) ابن سيده، المُحكم: (نصر).
(2) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(3) الرَّازيُّ، مختار الصِّحَاح: (حور).
(4) الخليل، العَين: (حور).
(5) ابن حِبَّان، صحيح ابن حِبَّان: 15/444. الحديث إسناده صحيح على شرط مسلم.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حور).

صدَّقنا باللّه واتبعناكَ، واشهد - أنت يا عيسى - بأنَّا مستسلمون للّه بالتوحيد والطاعة، فليس النَّصر خاصًّا بالقتال، بل يشمل الدَّعوة إلى الدِّين والعمل به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التعبير بقوله ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، وتكاتف الأساليب البلاغية في إثراء المعنى:

من طبائع الرُّسل ومزاياهم قدرتُهم على تحسُّس حال أقوامهم

قبل قوله: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ محذوفٌ، يدلُّ عليه، وتقديره والمعنى: فجاء عيسى بني إسرائيل ورَسُولًا، فقال لهم ما تقدَّم ذكره، وأتى بالخوارق التي قالها، فكفروا به، وتمالؤوا على قتله وإذايته، فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر...[2]، فعبّر بأسلوبٍ يُفهم منه ذلك كلُّه دون النُّطق به أو تلفُّظه؛ إيجازًا في الكلمات وغزارة في المعاني.

كما أنَّ ﴿أَحَسَّ﴾ استعارة؛ إذ لا يُحَسُّ إلّا ما كان متجسِّدًا، والكفرُ ليس بمحسوس، وإنَّما يُعلم، ويُدرك كعلم ما يُدرك بالحواس[3]، وفي قوله: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، استعار الإحساس للعلم بالشيء؛ وهي استعارة تصريحيَّة تبعيّة، وأصلُ الإحساسِ الإدراكُ بإحدى الحواسِّ الخمس الظاهرة للعلم، أو هو مجاز مرسل عن ذلك، من باب ذِكْرِ الملزوم وإرادة اللَّازم؛ والدَّاعي لذلك أنَّ الكفر مِمَّا لا يحسُّ[4].

وقدّم الجارَّ والمجرور ﴿مِنۡهُمُ﴾، ولم يقل: أحسَّ عيسى الكفر منهم، مع أنَّ تركيز الكلام على قضيَّة الكفر، والكفر: هنا جحود نبوَّته وإنكار معجزاته، لكنَّه قدَّم ﴿مِنۡهُمُ﴾ على الكفر لبيان اختصاصهم واهتمامه بشأنهم، وبيان شدَّة الموقف معهم - وهم

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/254، والموصليُّ، أولى ما قيل: 2/478، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/162.
(3) صافي، الجدول في إعراب القُرآن: 1/512.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/512.

يواجهون معجزاته بالجحود والنُّكران - وإبراز عتوِّهم ومكابرتِهم فيه مع العزيمة على قتلِه - عليه السلام - كما ينبئ عنه الإحساسُ، فإنَّه إنَّما يُستعمل في أمثالِ هذهِ المواقع عند كونِ مُتعلَّقِه أمرًا محذورًا مكروهًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾ [الأنبياء: 12]، وكلمةُ (مِنْ) متعلِّقةٌ بـ﴿أَحَسَّ﴾، والضميرُ المجرورُ لبني إسرائيلَ، أي: ابتدأ الإحساسُ من جهتهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح، لِمَا مَرَّ غيرَ مرّةٍ من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، وقيل: متعلقةٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الكفر[1].

بلاغة فنّ الحوار، في طلب الاستنصار:

فائدة الحوار الإحاطة بأبعاد القضيَّة من جانبي السّائل والمُجيب، فيتحقَّق منه الإيجاز، مع غزارة المعنى ووُضوحه

عندما استشعر عيسى عليه السلام كُفْرَهم وإعراضَهم بعد ما شاهدوه من المعجزات الكبرى التي يعجز عن أداءِ واحدةٍ منها أحدٌ من النَّاس، فاستدعى مناصريه؛ لِتَحْدُثَ المفاصلة، ويُعرف كُلٌّ بموقفه، فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قال الحواريُّون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وفائدة هذا الفنِّ الإحاطة بأبعاد القضيَّة من جانبين: السّائل والمُجيب؛ فيتحقَّق منه الإيجاز، مع غزارة المعنى ووُضوحه، فاختصر الموقف كلَّه بالسؤال والجواب، وبان أهل الحَقِّ من أهل الباطل.

والحواريُّ: صفوة الرجل وخاصته.[2].

بلاغة تَكرار لفظ النُّصرة:

تكرار لفظ النُّصرة توكيدٌ للقناعة وإصرارٌ على النُّصرة، ورغبةٌ في الدِّفاع عن الدِّين الحق

لَمَّا نادى عيسى عليه السلام بقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ جاء الجواب السَّريع من جانب الحواريّين: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وكان بالإمكان أن يكون الجواب مقتصراً على: ﴿نَحۡنُ﴾، أو يكون: (نحن يا رسول الله)، ولكن تَكرار لفظ النُّصرة جاء توكيدًا للقناعة وإصرارًا على النُّصرة، ورغبة في الدِّفاع عن الدِّين الحق.

(1) أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/41.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/172.

بيانُ الإطناب في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

غايةُ الإطناب إثارةُ قضيَّة التَّوحيد، والإيمان بالله وحده

وفي قوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ لم يكتفِ بقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾، وإنّما أردفه بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وهنا إيغالٌ؛ لتذكيرهم بأنَّه مُرسل من عند الله، وأنَّ نصرته هي نصرة لله تعالى، فكان إطنابًا؛ غايتُه إثارة قضيَّة التَّوحيد والإيمان بالله وحده؛ ولهذا جاء جوابهم نحن أنصار الله، ولم يكن الجواب: نحن أنصارك، أو أنصارك إلى الله.

بلاغة التناوب في حروف الجرّ:

في تضمين (إلى) معاني حروف أُخر سعةٌ في الدلالة، وثراءٌ في المعنى

في قوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ حذفٌ، فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الياء، أي: مَنْ أنصاري متوجِّهًا إلى الله ملتجئًا إليه؟[1].

ومن عالي البلاغة هنا إيراد حرف جر، ويحتمل عدة معانٍ، وكلُّها معانٍ متعانقة، لها في السِّياق ما يؤازرها، فقد قيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى: (في) أو (اللام) أو (مع)[2]، قال الزَّجَّاج: وإنَّما حَسُنت في موضع (مع)؛ لأنَّ (إلى) غاية، و(مع) تضُمُّ الشَّيء بالشَّيء[3] و(في)، أي: في سبيل الله.

وجاءت الجملة الثانية جوابًا لسؤال عيسى، ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه الذِّهنُ، كأنّهُ قيل: فماذا قالوا في جوابِه عليه السلام؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾[4]، وإنَّما جاء كذلك دلالة على سرعة جوابهم دون فاصل زمني؛ لذا سُمُّوا حواريين، كما نلحظ أنَّ الجواب جاء مشاكلًا للسُّؤال ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فلم يكن كالجوابات المعتادة؛ إذ الجواب يُكتفى فيه بـ ﴿نَحۡنُ﴾؛ فهو المسؤول

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/41.
(2) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزيل: 2/19.
(3) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 1/285.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/41.

عنه، لكنَّ النظم أشعرَ بولوعهم بالوصف، وتلذُّذِهم به؛ لذا جاء الجواب كذلك.

بلاغة الجمل الاستئنافية في التَّأكيد على تحقيق النُّصرة:

التعليل للنُّصرة بيان لأسباب حصولها

جاءت جملة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ بمنزلة الاستئناف الجاري مجرى العلَّة لما قبله، كما ذكر الرازيُّ والآلوسيُّ وأبو حيَّان وغيرهم، فالإيمانُ دافعٌ للنُّصرة، ويزيد هذا المعنى بيانًا وضْعُ المُظهَر موضع المضمَر؛ فالظاهر أن يقال: آمنَّا به، ولكنَّه عَدَلَ عن ذلك تأكيدًا لإيمانهم؛ لما في التصريح بالاسم الجليل من جلال المعنى.

بلاغة عطف الإنشاء على الخبر في الفاصلة:

التوجّه لمخاطبته سبحانه من تحقّق الإيمان بالله؛ وفيه تأكيدٌ لتحقيق النصرة

وقوله: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إنشاءٌ، عُطِفَ على الخبر، ومسالكه معروفة، فلفظه إنشائيٌّ، ومعناه خبريٌّ، وكأنَّ المعنى: آمنَّا بالله، وأقررنا بأنَّنا مسلمون، ويحتمل أن يكون المخاطَب عيسى عليه السلام ويحتمل أن يكون المخاطَب هو الله - عزَّ وعلا - كأنَّ المعنى: واشهَد يا ربَّنا بأنَّا مسلمون، وهذا من تحقيق إيمانهم بالله أن يتَّجهوا لمخاطبته سبحانه، وفي كلٍّ هذا تأكيد لتحقيق النُّصرة، فالأمر العظيم إذا توفرت أسبابه؛ فإنَّ ذلك أدعى لتحقيقه وحصوله، كما نلحظ أنَّ الجملة الأولى جاءت فعليَّة إعلانًا عن تجديد الإيمان، والثانية جاءت اسميَّة مؤكِّدة للدلالة على استمرارهم في الثبات على الإسلام.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ما يُكِنُّه أعداء الإيمان للرِّسالات السَّماوية من شرورٍ قد لا تُدرك أبعادها

(أحسَّ) و(عَلِمَ) أو (وَجَدَ):

لم يأتِ في النَّصِّ (علمَ منهم الكفر)، أو (وجد منهم الكفر)؛ لأنَّ ذلك إشعار بظهور الكفر صراحة منهم، وأنَّهم قد أعلنوه جهارًا، أو أنَّهم قد ارتكبوا أفعالًا وإيذاءً للرسول أو لأتباعه، ويبدو أنَّ ذلك لم يَحدث منه شيء، وإنَّما كان الأمر محفوفًا بالمكر والسرِّ، فقوله:

﴿أَحَسَّ﴾، فيه بيان استشعار النَّبيِّ عيسى عليه السلام بما عرَّفه اللهُ ألهمه من المعرفة بحالهم، وبما تضمره نُفوسهم، كيف لا؟ وهو يُنبِّئهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بُيوتهم، فجدير هُنا أن يُحِسَّ بما تضمره قُلوبهم من العداء للدعوة التي أتى بها... فَعَلِمَ منهم ما تُخبِّئُهُ قُلوبهم من مكر التَّنكيل بالرَّسالة، وأحسَّ بمكرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]. كما سيأتي في استكمال المشهد ووصفه؛ إذ كان الأمر محفوفًا بالمكر والإعداد لإنهاء أمر الدّعوة إلى الله سبحانه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»